صرخة أب

شريف بحيري

يجلس القاضى على منصـــة المحكمة بين قاضى اليمين وقاضى اليسار؛ ويجلس على الكرسي المجاور سكرتير الجلسة الذي يسجل كل كلمة بين القاضي والمدعين.

وكنت أقف أمامه وكتفي الأيسر بكتف المحامي الأيمن وعلى الجانب الآخر وعلى نفس المستوى تقف زوجتى ولكنها على يسار المحامي الخاص بها.

قدمت بطاقتي الشخصية لإثبات حضوري بالجلسة؛ وهي أيضا.

- القاضي: ماذا تطلبين؟

- الخلع.. إني أرفض الصـــلح.. وإني أكره الحياة معه.. وإني أخاف الا أقيم حدود الله.

- مرة أخرى.. هل تقبلين الصلح؟

- لا أقبل الصلح.

- ينظر القاضي إلي.. هل تقبل الصلح؟

شردت ببصري يتشتت ذهني، أين أفكاري؟ أين كلماتي؟ كلمة واحده أقولها تنهي كل شيء، تنهي حياة استمرت خمسة عشر عاما، تذكر أنها خانتك.. تذكر أنها قالت لك لا أحبك وكيف؟ وابنتي؟ أنا أحبها... نظرت إلى المحامي لعله يجد إجابة، وجدته يركز نظره على ما يدونه سكرتير الجلسة. نظرت إلى القاضي مرة أخرى؛ وكأن الثواني السابقة كانت دهرا..

-نعم.. ماذا.. نعم.. أوافق على الصلح.

يطلق القاضي الحكم: تحول القضـــية إلى مشـــيخة الأزهر لعرض الصلح بين الزوجين.

يصرخ محامي الزوجة: سيدي إنها كارة الحياة معه، إنه يعاملها بسوء إنه..

يقاطعه القاضي: هناك أولاد يا أستاذ.

بعد شهرين حصلت على الخلع.

حكمت المحكمة اليوم إنك لن تران مجددا؛ حكمت المحكمة اليوم إني لا أستطيع أن أراك، لا يحق لي البحث عنك، لا يجوز التواجد في مكان أنت فيه. كما هي عادتك إنك لا تردين على اتصالي بالهاتف ولا تحاولي أن تتصـــلي بي؛ وفوق ذلك أنك للمرة الأولى تغلقين الهاتف وهو يرن وترفض الرد على اتصالي.

كيف سمح قلبك بذلك؟

كيف استطعت فعل هذا؟

ألم تعرفي أني أتعذب حين لا تجيبين لا أنام، أنت من تبقى لي في هذه الحياة.

كلما قابلتك في المرات القليلة الســـابقة وفي لحظات أصـــغر من مقياس زويل الزمنى؛ كنت أطلب منك أن تتصـــلي بي، أن تحاولي مجرد المحاولة للاتصال، ولكن كنت أحدث نفسي؛ إن نفسي يمكن أن ترد علي؛ يمكن أن توقظنى من نومي؛ إني أتحدث إلى الفراغ. ابنتي اليوم أصبحت لا أستطيع أن أراك؛ حاولي أنت، أعرف إنك مجبورة على نكراني.

فتحت جهاز الهاتف الخاص بي؛ صفحات التواصل الأجتماعى بلا بمعنى إلى أن قرأت خاطرة لصديقتي؛ بعثت بعض الشجن فى داخلي؛ فأمسكت بالقلم والورقة وكتبت:

كتبت صديقتي؛ خاطرة حزينة؛ عن معنى الفقد بالموت والفقد بالبعد؛ وكيف أن الفقد بالبعد أشد ألما من الفقد بالموت وذلك لآن مع البعد يوجد ضوء بسيط فى نهاية الممر تظن أنه هو أمل العودة لما سبق، ثم تكتشف أن هذا الضوء ليس هو إلا انعكاس ضوء عمود الكهرباء بالشارع على واجهه محل زجاجي إذا جريت نحوه انكسر.

تحية لموهبتك؛ إنك عبرت جيدا أسلوبك الأدبي جميل وراقي، تعبيراتك دائما تعجبني؛ وكلماتك تدخل قلبي لكن.

هل يمكن ان تعبر عما يمزق قلبي؟

هل يمكن أن تعبر عن مشاعر من فقد ابنته وهي على قيد الحياة؟

هل يمكن أن تعبر عن لحظة الحزن حين من يرى ابنته ولا يستطيع أن يكلمها؟

هل يمكن أن تعبر عن محاولاتى المستمرة للاتصال بها هاتفيا ولا ترد؟

هل يمكن أن تعبر عن معاناتي وألمي وأنا أرى أن ابنتى ترى عدد مرات اتصالي ولا ترد؟ وحينما تنعم علي بالرد بعد يوم أو يومين، لماذا لا تجيبن حبيبتي؟ ... لا شيء.

إنها كلمة تحمل كما من البرود واللا شـاعرية ومجردة من أي عاطفة من ابنة لأبيها؛ سألتها باستعطاف:

- هل لا تريدين أن أتصل بك مجددا؟

- لا.. اتصل يا أبي.

- هل تريدين أن تتحدثي معي؟

- نعم أريد.

- إذا إبدائي كلاما، أريد أن أســمع منك، احكي كما كنت تحكين فى الماضى القريب..

لا أجد غير الصــمت، البعاد قطع كل محاور الحديث بيننا. فكرت وفكرت وفكرت أمـامي عـدة ثوان؛ لا أقـل... حتى تهبط علي أفكار شـاردة في موضـوع أبداء به الحوار مع ابنتي، و يجب أن تكون هذه البدايه مقدمة لموضــوع طويل أو عدد من الأســئلة متتالية. يا لا حظي العاثر لقد فقد القدرة على التفكير.

إني أريد أن أتحدث معك يا ابنتي طوال الليل ولكني لا أجد ما أبداء به الكلام، وإن وجدته لا أضــمن أن يطول الحديث، وإن طال قد يكون حـديثـا مملا يجعلـك لا ترغبين في لقـائي مرة أخرى. هـل تستطيعين صديقتي أن تعبري عما جال بخاطري من حالي مع ابنتي حين أحادثها؟

هل تســتطيع كتاباتك أن ترى دموعي وأنا عاجز عن أن أجد كلاما أحادث به ابنتي؟ أنأ أرى ابنتي دقائق بل لحظات وهي تذهب إلى التمرين، لا أسـتطيع التحدث إليها إنها تريد أن تغير ملابسـها سريعا

لتلحق ميعادها، فالمدرب يغضب من التأخير وهي تخاف من غضبه مدربها وأصبحت لا تهتم بأن أحزن... لا... إنها لا تشعر بتعاستي، لا تشعر بأني مدمر من داخلي. وبعد التمرين أجري نحوها كعاشق ينتظر حبيبته.

- ابنتي أريد التحدث إليك.

-لا أستطيع، سائق التاكسى بانتظاري لا أستطيع التأخير عليه.

تتركني محطما، لا... لست محطما... فسأحاول وأحاول سأعتبرك حبيبتى التي أجري وراءها، سأنتظرك في كل وقت، سوف أتصل بك مرات كثيرة حتى لو لم تجيبي، لقد عدت كتلميذ في المرحلة الثانوية يتسكع على أبواب مدرسة البنات لعله يظفر بنظرة أو ابتسامة.

ابنتي اعلمي أني أحبك، اعلمي أني لم أكن السبب فيما حدث، أعلم أنك لن تصدقيني لكن لا أملك إلا أمل أن تصدقيني مستقبلا.

أرسلت هذه الكلمات لصديقتي التي شعرت بالحزن نحوي وردت علي.

- صديقي أنا أعتذر إن كانت كلماتي قد أثارت بك كل هذا الشجن.

- لا تعتذري صديقتي فالحزن داخلي يقف على حرف أنت فقط أسقطت هذا الحرف.

- لم أكن أريد أن تحزن بسبب كلماتي.

- صديقتي العزيزة لا تحمل نفسك عبء لا تحمل وزره، إن من يتحمل سقوط أسرة سقطت كسقوط غرناطة، من يتحمل ضياع حلم إبنة كانت تحلم أن تكون بطلة في رياضة السباحة فجاء، من

أخذ حلمها من أجل شـهوته من أجل نزوته، وقد سـاعدته هي على ذلك، وكانت تظن أنها تبني لنفســها عالما، أي عالم كانت تبحث عنه؟ إنه عالمها هو من كانت تعيش فيه، إن عالمه هو بيتها وزوجها الذي خانته إن عالمها هو ابنتها التي وأدت أحلامها، سـوف تسـألها في زمن أت، بأي ذنب قتلت حلمي؟

- صديقتي أشكرك على مشاعرك الصادقة.

تمر الأيام أتمزق من داخلي لبعد ابنتي؛ أعرف أن هناك من يوسـوس لك إني هجرتك و إني لا أصرف عليك و لا أرسل لك أموالا، الحقيقة أني أصـبحت مثل الدمية لا أهتم بما يحدث حولي، لا أتابع مباريات فريقي المفضــل، و ليزداد تمزقي فأن عشــيقها كان يشــجع نفس الفريق، فهمت الأن لماذا كانت تجلس بجانبي لمتابعه المباريات، كانت تعرف أفكاري و تسـامر عشـيقها، لابد لي من نهاية؛ لابد لي أن أرى ابنتي؛ أريدها أن تقضى العيد معي؛ تمر الأعياد و رمضان و أنا فى رمضــاء وابنتي لا تشــعر بي؛ بل تظنني ناكرا لها، لا يا ابنتي؛ لســت مقيد الأغلال لأبحث عن الحل.

- أستاذ انا أتعذب.. أريد ان أرى ابنتي.

- القانون لا يتيح لك إلا يوما فى الأسبوع.

- كيف؟ أنا كنت أرها وهي تســتيقظ من النوم وهي ذاهبة لغســل وجهها، وهي أتيه من المطبخ تحمل بعض الطعام، على فراشها تكلم صــديقاتها باســتخدام وســائل التواصــل الاجتماعي، وهي تذهب لمدرســتها وهي ترتدى ملابســها اســتعدادا للتمرين، وهي تمارس رياضـتها المفضـلة، وهي مجهدة بعد التمرين و تطلب أن تأكل و أنا

أقول لها إن طعام أمك ألذ و أطيب من طعام المطاعم، الأن بعد الانفصال أختصر كل ذلك فى يوم أسبوعيا.

-ويحدد القانون مكان الزيارة فى أحد الأماكن العامة وبحضور موظف لتسجيل حضور الأبنة والأب.

- ولكنها خانتني وأرادت الزواج من غيري.

- القانون لا يعرف سوى أنها الأن حاضنة.

- ولكنها غير جديرة بالأمومة.

- هذا كلام إنسانيات نذكره في المحاضرات وأماكن الدرس ومناقشات المقاهي.

- ولكنهم لا يملكون سلطة لمساعدتي.. من يسمعني ويقدر موقفي.

- القانون واضح وصريح.

- أنا لست مجرما، أنا أب... من أيام قليلة كانت تبيت بين أحضاني، كنت أنام على فراشها، كنت أحتضنها صباح مساء؛ كنت أضع يدي على كتفها لأني لا أجرؤ على فعل ذلك سوى مع ابنتي، كنت أداعب خصلات شعرها، كانت تغير تسريحة الشعر لأجلي؛ وتحضر الدواء لأجلي، الأن هي تخافني.

- أنت ليس لك حق سوى فى رؤيتها ثلاث ساعات أسبوعيا.

- باندهاش فتحت فاه.. ثلاث ماذا؟ وما أقول فيهم؟ هل أصبح مضحك الملك؟ أما أصبح الناصح السخيف ذو الوجه المكروه؟

هل أشتري كل مايطلب مني في هذه السويعات؟ أم أعلمها الاقتصاد والتدبير وأصبح بخيلا.

- إن هذا كل حقك.

- ومتى تنتقل الحضانة لي؟

- بسخرية.. حضانة البنت حتى الزواج.

- فتحت فمي وانحنيت للأمام، وماذا تفعل بي بعد أن تتزوج؛ وبسخرية وبصوت فيه استهزاء.. هذا أبي الذي لم أره فى حياتي سوى سويعات فى الأسبوع إن أردت أن يزورنا يا زوجي الحبيب أكون شاكرة لك.

- هذا زوجي يا أبي، لا أعتقد أن رأيك يهم فلم يكن لك دور في حياتي.

- إنه القانون.

شردت بذهني بعيد؛ سرحت بخيالي؛ رأيت أمام عيني أحد اللقاءات الأسبوعية.

- أستاذ لا تنظر هكذا إلى ابنتك إنك تخيفها.

- نظرت إليه بهدوء.

- أستاذ لا تحاول أن تمسك ابنتك إنك تؤلمها وهذا يحسب عليك.

- نظرت إليه بحدة.

- أستاذ لا تحاول أن تتكلم مع ابنتك فى هذا الموضوع فهذا خارج نطاق الزيارة.

- جحظت عيناي باندهاش.

يقطع حالة التخيل صـــوت المحامي؛ ماذا تريد أن نفعل هل نرفع قضية للرؤية؟ تركته وخرجت دون رد.

****

ذهبت إلى مدرســة ابنتي، لقد بدأت الدراســة من أســبوع يجب أن أدفع مصـاريف المدرسـة ولعلها فرصـة أن أرى ابنتي لدقائق أشـعر خلالها أن كل زملاء ابنتي يراقبونني وأن المدرســـة تتابع أنفاسي وأشـواقي، ولكن كل هذا لا قيمة له من أجل حضـن أبوى وقبلة على جبين ابنتي.

- صباح الخير يا أستاذة.

- صباح النور.

- من فضـلك كنت أريد أن أدفع المصـاريف وأريد أن أسـلم الكتب بنفسي لابنتي.

- يمكنك أن تدفع المصاريف ولكن الكتب في أي وقت لاحق إنها...

- قاطعتها بهدوء... أسف يا أستاذة ولكني منفصل عن والدتها.

- نظرت إلي بشـــفقة؛ آه فهمت انتظر، أجلس على هـذا الكرسي، وأرســلت إحدى العاملات بالمدرســة لتنادي على البنت. وفي هذه الأثناء تم دفع المصاريف وكتابة الإيصال وتجهيز الكتب المدرسية، حضرت البنت ونظرت لها بشوق وحدثت نفسي: لقد فقدت بريقها وجمالها وعلى وجهها مســحه من الحزن وعيناها يملؤها التســاؤل،

أتسائل ماذا علي أن أفعل؟ أنا لم أرى ابنتى منذ شهور فهم يمنعونها عني، ما هو أول شيء لابد أن أفعله... وتقطع المدرسة أفكاري قائلة:

- هذا أبوك هيا ألقى عليه بالتحية لا داعي للخجل،

تقترب البنت وتقبلني وأنا أمد يداي ألتمس وجهها الجميل وأقول ما بك يا ابنتي هل أنت بخير؟

لا ترد وترسم بسمة باهته على شفتيها، فيما تقول المدرسة: والدك قد دفع المصاريف وعليك أن تستلمي كتبك، نظرت إلي باسمة و أخذت الكتب و رحلت.

وقفت لا أستوعب ما حدث، التفت إلى المدرسة أشكرها، وأخبرتها أنهم يمنعونها من الكلام معي وأني لقد اعتدت ذلك وألقيت التحية لا أعرف إن كانت سمعتها أم لا والتفت خارجا من المدرسة متوجها إلى سيارتي فتحت بابها وجلست؛ الدموع تتحجر في عيناي؛ تحركت بالسيارة في اتجاه طريقي؛ بحثت عن هاتفي وكلمت صديقي وصوتي مليء بالشجن، لن أذهب للعمل اليوم إجازة لا تقلق كله انتهى؛ حتى أنا؟ لا أريد منك كلاما متوجه إلى منزلي لا أريد ازعاج العمل؛ أغلقت هاتفي؛ سيارتي تسير فهي تعرف الطريق؛ لا أسمع آلات التنبيه تتغير إشارة المرور؛ فتقف السيارة؛ عقلي يفكر بالمجهول لا فكرة لا كلمة ولكنه مشغول؛ يتغير لون الإشارة؛ أكمل المسير؛ الدموع تأبى أن تنزل ترفض نفسيـ البكاء؛ وصلت لمنزلي صعدت درجات السلم ببطء كأني أتأكد من عددها، فتحت الباب مهزوما؛ أحدث نفسيـ، تندفع الدموع من عيناي... لم أعد أبا... لم يعد لي مسؤولية، أصبحت فقط مصدرا للأموال، تميد الأرض بي،

أنا أب... تتحرك الأرض أكثر ... أنا لي مسـئولية تجاه ابنتي... يزداد الدوران... كيف لي أن أربي ابنتي؟ بدأت في التمايل... كيف لي أن أهبها خبراتي؟ ... أترنح أكثر... كيف أمنحها القوة لمواجهة الحياة؟ اسـتندت بيدي اليمنى على المنضـدة، لقد فقدت السـيطرة على ابنتي... سـندت بيدي الأخرى ... صرخت أنا أب ولسـت خزانة أموال... انخفضـت جفوني... ابنتي... اغلقت جفوني نهائيا... ابنتي... شعرت بدوار شديد وسقطت أرضا؛ وأنا أتمتم... ابنتي... أنا أبوك... ابنتي، أنـت حلم حيـاتي... ابنتي... أنـت أملي الـذي لم يتحقق... ابنتي... كنت أعيش من أجلك... ابنتي... لقد سـهرت لراحتك... ابنتي... لسـت أنا من ترك البيت ... ابنتي... لسـت أنا من هدم البيت... ابنتي... لست أن من أطاح بأحلامك... ابنتي... لست أنا من غير اتجاه حياتك... ابنتي... لقد حاولت مرار وتكرارا أن اوضح لـك الحقيقـة... أبنتي... هـل تعلمين مـدى حبي؟ ... ابنتي... هـل تعلمين؟ متى تدركين الحقيقة؟تنهيدة مكتومة وصوت يسمع صداه بصدري... حين أموت.

يطرق أحدهم باب المنزل.. فتحت الباب.

هذا حكم نهائي بمنعك من رؤية أبنتك لآنك غير جدير بذلك.

آآآآآه ... آآآآآه ... آآآآآه ...

ولينتقم الله من كل رجل ينظر إلى سيدة متزوجة.
ولينتقم الله من كل أم زوجة تعصي ابنتها على زوجها.
ولينتقم الله من كل زوجة خانت زوجها.
ولينتقم الله من كل من باعد بيني و بين ابنتي.